أثر الثقافة الإسلامية في الشعر الملحون المغربي

إعداد

د. منير البصكري

بسم الله الرحمان الرحيم

أثر الثقافة الإسلامية في الشعر الملحون المغربي

في أدبنا الشعبي ، مادة غزيرة ومتنوعة ، يمكن أن تساعد على خلق نهضة حقيقية لهدا الأدب ، وهو ما انبرى له أستاذنا الدكتور عباس الجراري بحثا ودراسة وتأليفا وإشرافا .

وبما أن الشعر الملحون مجال تعبيري أدبي أصيل أصالة ثقافتنا الشعبية المغربية ، فجهود أستاذنا واضحة في هدا النطاق ، وبدلك يكون ـ وبدون منازع ـ رائد البحث الأكاديمي في الشعر الملحون. وهده الحلقات من موضوع " أثر الثقافة الإسلامية في الشعر الملحون المغربي " مهداة إلى عميد الأدب المغربي، لما أسداه من جهود خدمة للدين القويم في إطار العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي وسلوكية الجنيد ، حيث يتكون من هذه العناصر الثلاثة، التوجه الإسلامي السني الوسطي المؤهل لرقي الحياة الاجتماعية والروحية والإنسانية في المغرب.

والشعر الملحون كأحد مكونات الثقافة المغربية الأصيلة، زاخر بالعديد من القيم الإسـلامية، تشهد على ذلك الكثير من القصائد التي تبرز تشبع شعراء الملحون بالثقافــة الإسلامية التي كانت دائما هي النزعة الطاغية على اهتماماتهم، لأنها مرتبطة بالعقيـدة الإسلاميـة.

الحلقة الأولى:

إن الحديث عن أثر الثقافة الإسلامية في الشعر الملحون، يستدعي استحضار هذه الثقافة كقاعدة سلوك وعمل، وكمكون أساسي للمعرفة والفهم والاقتناع. ولا شك أن الإسلام حرص في بنائه للفرد المسلم على أن يوفر كل الظروف الملائمة لإشباع الحاجة إلى العلم والمعرفة في نفوس أبنائه .. فما أ نزل القرآن إلا ليفهم الناس روحه ويستنيرون بهديه وآدابه ليخرجهم من الظلمات إلى النور .. وصدق الله العظيم حين قال: " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم" ففي رحاب القرآن، وفي مدرسة النبوة، يتعمق الإيمان، وتتقوى العقيدة، وينعم المجتمع بالرحمة والأمن والهدى.

فالتاريخ يسجل أن الثقافة الإسلامية من صميم جوهر العقيدة الإسلامية التي احترمت الإنسان وسمت بعقله ، ودعته إلى التفكير في خلق السماوات والارض، وفتحت أمامه الآفاق لاكتناه المعلوم ، واكتشاف المجهول. ومن تمة، انطلق المسلمون يدفعهم إيمانهم الصادق، وتحفزهم عقيدتهم الحقة ، يبحثون فيما حولهم ويتدبرون صنع الله الذي أتقن كل شيء، فازداد إيمانهم ، وأفادوا مما سخر الله لهم.

وهكذا ، فللقرآن الكريم، وللحديث النبوي الشريف وغيرهما من مصادر الثقافة الإسلامية، قيمة فكرية وإيجابية فاعلة، وقوة بناءة، وحركة دافعة إلى النمو المطرد.

لعل من يتتبع قصائد الملحون ، سيجد ـ لامحالة ـ أثر هذه الثقافة واضحا ، ذلك أن شعراء الملحون ـ كما هو معلوم ـ حرصوا دائما على مجالسة العلماء وحضور مجالس العلم وسعوا إلى الاستفادة من ذلك، وتسجيل الكثير من المعلومات المهمة في شعرهم .. وبذلك ساهم غير قليل منهم في إغناء قصيدة الملحون ، بمفاهيم وأفكار ومعاني وأساليب فنية ،ومضامين واضحة الصلة بالثقافة المدرسية ومصادرها العربية والإسلامية

من قرآن وحديث وتفسير ، وفقه وتاريخ وسير، مما أكسب شعراء الملحون ثروة ثقافية واسعة ، ورصيدا مهما من الأفكار والمعاني والأساليب .. يشكل ذلك في مجمله ثقافتهم ، مما يكشف عن روح إبداعية كبيرة لشاعر الملحون.

ومعلوم أن الشعر الملحون، جزء من الثقافة الوطنية والتراث الشعبي الوطني. والباحث حين يعرض لما عالجه الملحون من موضوعات، يندهش لهذه الشمولية التي لم تكد تغادر موضوعا من مواضيع الشعر الفصيح ، إلا تناولته ، بل أحيانا زادت عليه ألوانا أخرى.

ومن الموضوعات اللافتة للنظر، تناول شعراء الملحون لجوانب كثيرة من الثقافة الإسلامية مما ترك بصمات واضحة على غير قليل من قصائد الملحون .. وهي قصائد يمكن أن نعتبرها ضمن الأعمال الأدبية الجديرة بالاهتمام و الدراسة و التتبع.

و لعل هذا هو الدافع الأساسي الذي حدا بنا إلى الكتابة في مثل هذا الموضوع . خاصة في هذه المرحلة من مراحل الصحوة و الرشد و العودة إلى الذات و الأصالة في حياتنا المعاصرة.

إن التعرف إلى الأرضية التي انطلق منها شعراء الملحون ، و الدوافع التي كانت وراء توجههم نحو مضامين الثقافة الإسلامية، تتجلى أساسا في أن المغاربة برمتهم ارتضوا العقيدة الإسلامية، و اطمأنوا إلى مضمونها .. فهي بهذا المعنى لابد أن تكون من العمق و التمكن من نفوسهم ، و طالما أنها عقيدة تقوم على أساس التوحيد و إفراد الخالق بالعبادة.

ومن هنا ينطلق كل مسلم في فهمه و في تصوره و في سيره في هذه الحياة . فالإسلام ينظر للإنسان على أنه مخلوق سوي مكرم في غير استعلاء مطلق، و لا مهانة مذلة.

أدرك شعراء الملحون أنه إذا أريد للأمة ام تنهض من كبوتها، و تتجاوز ظروف تخلفها ، لابد لها أن تعود إلى أصالتها ، وعهود نقائها وفطرتها .. وكان أن انطلق هؤلاء من القرآن عملا بقوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) و إذا كان هؤلاء الشعراء قد التفتوا إلى الثقافة الإسلامية ، فهو توحد طبيعي نابع من إيمانهم الصادق بعقيدتهم السليمة. و هذا الاتجاه الأدبي الشعبي الذي يعتمد الثقافة الإسلامية أسماء له تثوي خلفه مؤسسات معروفة ، تمثلها المساجد و الزوايا المنتشرة طول البلاد و عرضها فإلى هذه المؤسسات يعود الفضل الكبير في المحافظة على الروح الديني ، و تثبيت دعائم الثقافة الإسلامية.

و لعل التعرف إلى مكونات الثقافة لهؤلاء الشعراء، يفسر لهم التوجهات الفكرية و الأدبية التي ستنتظر على نتاجاتهم وهي مكونات الثقافة الإسلامية رصيدا مهما لها فنحن نعتبر أن المساجد و الزوايا كانت دائما تشكل حلقات متميزة للتعليم ،إذ كانت حافلة بتدريس كتاب الله و تفسيره و التعلق بالعلوم التي تدور حوله . كل هذا خلق جوا مشبعا بروح الأدب و العلم الديني. فلا يمكن أن ننسى دور منابر الدرس التي كان يلقي عليها الخطباء و العلماء و الوعاظ أحاديثهم عن الإسلام مع ما يتخلل ذلك من معلومات دينية و تاريخية مفيدة.

لقد شكلت هذه المنابر مدارس سيارة ساعدت على تعميق الوعي الإسلامي و نشر الثقافة الإسلامية. فلقد أثر عن شعراء الملحون أنهم كانوا على اتصال دائم مع العلماء من خلال حلقات الدرس و التعبد في المساجد..ولا شك أن الاتصالات تعد من الأمور الطبيعية في حياة الناس.. و هكذا، كثيرا ما كان يقع الاتصال بين هؤلاء العلماء و غيرهم ، يجالسونهم ، يأخذون عنهم من فيض ما عندهم من علوم و عبر هذه القناة الثقافية المتاحة، تتنفس الروابط الثقافية و تنموا في طيرورتها المتصلة، و تتلاحق الأفكار بعقد المحاورات

و المناظرات و المناقشات التي تعطي ثمراتها المرجوة في ترسيخ لحمة الروح العلمي بين هؤلاء العلماء شعراء الملحون.

إن الشعر الملحون، لم يكن دائما مرتبطا بالغرام، فهناك الشعراء من كان لهم إلمام بالكتابة والقراءة على حد قول سيدي عبد القادر العلمي.

عرفت الدين و قريت بفكري شي مواهب
و تركت مجالس اللهو و جلست مع أهل الصـواب
بين البلديـــــين لا ذلت النـال بقلب راغب
و نشوف الى يلذ لي في العشرة و نترك لعتاب
بلا تونيــــــن قالوا من قبل في الـمـواهب
أترك من لا يساعدك و لو كان ولي من القطاب...

بل منهم من أتيح له أن ينهل من العلم و يحث أيضا على طلبه كقول الشيخ ابن سليمان.

به تدركوا لمزيا اقراؤا العلم اصغار
الراديو مولاه صانعة بالعلم للخبار
زد اجتهد و اقرا..

ويقول سيدي عبد القادر العلمي:

سال و سقصي أهل المعاني و التفضيل ينبيوك بالخبار يا من هو سايل

كما يقول الشيخ ابن اصغير منوها باهل العلم:

و الرضا و الرضوان لهل العلم لمجاد امنورين القلوب هل الدين بالرشد.

لقد اعتمد شعراء الملحون في ثقافتهم الإسلامية أولا على القرآن الكريم الذي بهر الجميع بأسلوبه الفني المعجز، و قيمه الفكرية و التشريعية السامية . فهو عنصر أساسي في الثقافة الإسلامية، نوه به هؤلاء الشعراء وأوردوا مضامينه في غير قليل من قصائدهم، بما أمد ها من روح جديدة، و بما أضفاه عليها من زينة. يقول مولاي الشاد:

ما حد كتاب الله فالصدور لا نبكيوا اعلاه

و يقول سيدي الأخضر:

فضل كتاب الله عندي يكفيني قوتي و عدتي
نهزم به القوم وحدي نفسي و شيطان العدا

و مثل هذا الكلام يتناسب مع قوله تعالى :" إذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لايومنون بالآخرة حجابا مستورا" أو قوله عز و جل : "و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمومنين."

إن للقرآن مكانة عظيمة في النفوس. ولا شك أن شعراء الملحون نهلوا من فيضه واغترفوا من معينه الذي لا ينضب، و استلهموا معانيه و جسدوها في شعرهم، و ذلك من خلال اطلاعهم على غير قليل من سوره وآياته على حد ما نجد مثلا في قصيدة الصبي الذي تشفع في والديه بالقرآن العظيم، لسيدي قاسم أبي

عسرية البويفي.. ففيها حديث عن فضل القرآن العظيم وأوصاف مهولة للجحيم، و كذا وصف آخر جميل للجنة، ختمها الشاعر بقوله:

قال له أذاك الصبي على حق القرآن سير بهم باثنان
عفيث على امك و ابوك و خرجتهم من جهنم
هذي قصة الصبي باصحاب المعاني اللحافظ القرآن
هذا قليل في حق القرآن العظيـــــــــــم

وقد دلت غير قليل من الآيات القرآنية على مثل هذا الأمر. يقول تعالى في سورة "المزمل" "فاقرأوا ما تيسرمن القرآن"، ويقول : " بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ". وفي سورة فصلت ، يقول عز شأنه : " كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون. "

كما يقول تعالى في سورة يونس :" وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه .." . ولم يكتف شعراء الملحون بالقرآن الكريم ، بل امتد اطلاعهم أيضا على الحديث النبوي الشريف ، على حد ما نجد عند الفقيه لعميري إذ يقول:

أو فالحديث القابض دينه فكل الأحوال كالقابض جمرة يا من صغى لي

وقول الحاج محمد النجـــــــــار:

من لا يمجد المصطفى قوله افجـــور أخيار ما خلق الجليل
فالكون ما يلو امثيـــــــــــــــل جاب الحديث والتنزيل

ويستفاد من قصيدة الشيخ سيدي محمد الدبـاغ أنه كان على اطلاع بالقرآن والحديث يقول:

معميين الفؤاد والبصــــــــر
ما سمعوا قول الكريم ولا الحديث نذيره
وعليهم تسلط الفقر
نتوسل لك ياعظيم بالقرآن وتفسيره
تغفر لي والكل من احضــــر

إن المتتبع لقصائد الملحون، سيجد ـ لامحالة ـ أن الشعراء لم يقتصروا في ثقافتهم على القرآن والحديث، بل يقدمون أحيانا معلومات فقهية وتاريخية، ومعنى ذلك أنهم كانوا على حظ وافر من هذه الثقافة الإسلامية، بل لعل منهم من كان من العلماء، كالشيخ محمد بن علي ولد أرزين .. فقد حفظ القرآن الكريم وانتقل إلى فاس حيث التحق بجامع القرويين. والشيخ لعميري الذي كان له إلمام بغير قليل من العلوم المتصلة بأصول الشريعة والتاريخ ، والشيخ عبد العزيز المغراوي وكان ملهما ومبدعا بقدر ما كان أيضا تقيا عالما وفقيها، وغير هؤلاء كثير.

وتأسيسا على هذا الأمر، نهلت قصيدة الملحون من الثقافة الإسلامية واستهدت بمضامينها، إذ إن فرص إفادة الشعراء منها متعددة، فقد وجدوا فيها مادة غزيرة، يمكن أن نستوحي منها انطلاقتنا في بناء ثقافة وأدب حديثين. فإذا كانت عناصر تراثنا الفكري والأدبي تتفاوت في استمراريتها ومساهمتها في دفع نهضتنا الحضارية، فإن القرآن الكريم وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليسا وقفا على مرحلة معينة أو عصر معين، بل هما المصدر الأكبر لهذا التراث، فاضا على ألسنة أدبائنا حين يكتبون شعرا على تفاوت بينهم في طرق الأداء.

إن الثقافة الإسلامية التي رضع شعراء الملحون من لبانها ، أملت عليهم الاهتمام بالمدائح النبوية ، وتسجيل المناسبات الدينية كالحج وقدوم شهر رمضان ، ومعارك المسلمين وانتصاراتهم التاريخية . كما أن ارتباطهم بالعلماء والوعاظ وغيرهم ، جعلهم يتبارون في متابعة مواقفهم ويتفاعلون معها.

ولو تتبعنا نتاجاتهم الشعرية ، لوجدنا أثر الثقافة الإسلامية واضحا ، شأنهم في ذلك شأن شعراء الفصيح، ويستطيع الباحث أن يلحظ في سلوكهم ، إسراعهم إلى التوبة وطلب الغفران حين يصدر منهم ما يخرجهم عن الوفاء للقيم الدينية الإسلامية ، استجابة للخلق الديني الذي جبلوا عليه ، أو إلى الضابط الاجتماعي الذي كان له تأثير كبير في المحافظة على قيم المجتمع ومبادئه .. وليس ذلك إلا من أثر الثقافة الإسلامية .. في حين أن تأثير الثقافة الغربية منعدم عند شعراء الملحون ، على الرغم من امتداد تيار التغريب إلى مختلف مظاهر الحياة الثقافية في المغرب وعلى الرغم أيضا من استخدام الثقافة الغربية أسلحتها في الاستلاب والتغلغل والتأثير.

ولولا العقيدة الثابتة التي تضرب جذورها في نفوس هؤلاء الشعراء إلى الأعماق ، ويمتد عمرها إلى خمسة عشر قرنا، لما استطاع المجتمع الإسلامي أن يصمد لهذه الحملة التي جند لها الغرب أساطيله ورجاله وعلمه.

إن شعراء الملحون ظلوا متمسكين بعرى الثقافة الإسلامية ، فلم تستطع تيارات التغريب أن تشكلهم وتترك بصماتها على ثقافتهم و سلوكاتهم ..وعلى النقيض من ذلك، وجدت المعاني.

لقد وجدت الموضوعات القرآنية والحديثية طريقها إلى الشعر الملحون ، وبذلك كانت الثقافة الإسلامية رافدا أصيلا من الروافد التي ألهمت الشعراء وأغنت تجاربهم ، وفتحت أمامهم أبعادا خصبة من الرؤية الكلية للحياة ، فلا أحد يماري في أن العلاقة بين الدين والشعر علاقة متبادلة . فقد استطاع الدين أن يمد الشعر بموضوعات جليلة ، وأن يلونه في كثير من الأحيان بألوان دينية مختلفة.

ومن الموضوعات التي استأثرت باهتمام شعراء الملحون، نجد صفات الله تعالى، الإيمان به و بملائكته ورسله، الإيمان بالقضاء و القدر و الجنة و النار و الثواب و العقاب. ثم ذكر صفات المؤمنين كالخشية من الله و الثقة به و التوكل عليه و الصبر و الجهاد. والتسامح، بالإضافة إلى موضوعات العبادة كالصلاة والصوم والحج والزكاة، ثم ذكر صفات الكافرين والمنافقين كالظلم والكذب ونقض العهود، و فلسفة الحياة والموت، وغيرذلك من الموضوعات التي أمدتهم بها الثقافة الإسلامية، و لذلك يتعذر على الباحث أن يحيط بجميع هذه الموضوعات، فهي كثيرة و متشعبة، وليس هدفها هو الإحاطة بها، وإنما أردنا فقط أن نلامس بعض الموضوعات التي وجد ت هوى لدى شعراء الملحون ،فنقلوها الى تجاربهم الشعرية.

ففي مجال التوحيد مثلا، أرضى شاعر الملحون عقله و قلبه فآمن بأن لا إله إلا الله هي الصيغة الإسلامية الأولى البسيطة في دلالتها، لذلك نشأ التوحيد عنده عن إدراك مباشر لما يتجلى في قلبه من معاني الوحدة الإلهية. فعقيدة الإسلام هي عقيدة التوحيد، و كلمة الشهادة (أشهد أن لا اله إلا الله، وأن محمدا رسول الله) هي الكلمة الجامعة لهذه العقيدة الدالة على التوحيد الخالص لرب العالمين.

و من هذا المنطلق، سار شاعر الملحون وفق ما نص عليه القرآن والسنة ببساطة ووضوح وهو يسعى إلى إيقاظ العقول للتدبر والتأمل وتوجيه الشعور والاحساس بوجود الإله الواحد الأحد، عملا بقوله تعالى: فاعلم أنه لا اله إلا الله.

فالموجودات على اختلافها وتعدد أنماطها وآثارها هي من صنع الله و حده، وهذا فعلا ما أثبته القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: صنع الله الذي أتقن كل شيء ، إنه خبير بما تفعلون..

يقول شاعر الملحون ابن الصغير:

حق الحق أصاح راه ما كاين غير الله صانع أو بادع ما يختار
سر الله المالك الأكبر جل جلاله الجليل في كل اشارا...

في القرآن نجد صفات إلهية كثيرة في مثل قوله تعالى (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب و الشهادة، هو الرحمان الرحيم هو الله الذي لا إله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق البارئ المصور، له الأسماء الحسنى.

و هكذا، نجد أن شعراء الملحون قد استهدوا بالقرآن الكريم، واستمدوا منه هذه الصفات عندما تطرقوا الى الذات الالهية و صفاتها. وقد يتفاوت الشعراء في تناولهم لهذه الصفات تبعا للمواقف التي تملي عليهم التشبث ببعضها دون غيرها. فشاعر مثل الشيخ محمد الرباطي يسوق لنا بعض هذه الصفات في قوله:

رب احليم حنين رحيم ما ايحافي بضلالا
بر موجود عظيم عطيف دايم قديم وستار

ويقول الحاج الصديق:

بسم الكريم رب سبحان خالق الارواح أخالق الداج و الصباح
باعث وارث جمع الاشيا يلمحني ليس نلمح
قدوس العز ذا الجلال المتعالي خالق الصباح من لا وصفه الماح
حي أبلا روح بحر صمد يا مر بديام و استبح

و يضيف الشيخ الميلودي قائلا:

مول الملك الواحد الغني سلطاني معلوم بالعطا و ناليه النادي
أقديم الصرخا أكريم ما ينساني ود لعباد بالمبرور المهتادي

و هو سبحانه عند الشيخ محمد بن علي المسفيوي:

الواحد الاوحيد البر الاحادي من فيه درت ظني و اكمال ارجيا

ويقول الشيخ بلحسن:

حاضر ناضر ساطع أوجيب دايم من قصد ما يخيب

فهذه الصفات مستمدة في جملتها من القرآن الكريم بطريق مباشر أو غير مباشر .. و هي جميعا توجب الاعتقاد بوجود الله و وحدانيته .. و الى ما سبق يضيف الشيخ محمد بن علي المسفيوي في قصيدته الهلالية:

لا اله الا الله
دو المجد جبار على الا شيا قادر
الحكيم غفار عالم السراير
العظيم قهار للعباد قاهر
ماتراه الابصار الخبير باصر.

في حشد الشاعر لهذه الصفات(الجبار– القهار ..) يستنجد بالقوة الإلهية الغالبة القاهرة التي لا معقب لحكمها .. و الله سبحانه – و هو أعلم بمراده – كأنما أراد بذكره لصفاته الدالة على القهر و الغلبة أن يملأ أسماع المؤمنين بحديث الفتوة و القوة . فإذا ما سيطر عليهم اليقين بعزة ربهم، استشعروا القوة بأنفسهم ، و اعتزوا بمن له الكبرياء وحده في السماوات والأرض ، و إلى ذلك يشير الشيخ العلوي سلسولي بقوله:

راد الله و خلقنا أضعاف مول الملك الدايم
سبحان من لا ينام و لا يسهى لعليم
بالخافي و الظاهر رب قوي جواد و راحم
لخلايق كلها ترجى رحمة لرحيم
مستغني على لفعال صالح و قبايح لجرايم
يغفر وجود ما يحافي عبد الأثيم
خلق لكوان أبلا اعوين يفعل ما راد وحـــــاكـــــــم
لعقول اتحير فيه غني موجود أقديم
متفرد بالدوام والبقا صفات ياحـــــــــــــاضـــــر
درها تسبيح فاللسان والغ قول الزور...

ويستفاد من هذه الاستشهادات أن شعراء الملحون ، فطنوا فعلا بأن عقيدة التوحيد تعتبر رأس العقائد الإيمانية ، علاوة على أنهم انتبهوا بعقولهم وقلوبهم إلى توحيد الله وما يوجبه ذلك عليهم من عبودية لله تعالى ، وإيمان صادق خال من الشك والانحراف . والإيمان لا يكون مرضيا إلا إذا كان على هذا النحو من التمكن والصدق ، مقترنا بالتوحيد العملي .. وهو إفراد الحق سبحانه بالعبادة والتقديس.

كان الإمام الشافعي يقول : " آمنت بالله وبما جاء عن الله ، على مراد الله ، وآمنت برسول الله ، وبما جاء عن رسول الله على مراد الله .." كما كان الإمام أحمد يقول : " نفوض الأمر لله قائله وموجبه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولا نرد على رسول الله ، ولا نصف الله تعالى بأكثر مما وصف به نفسه ، ووصف به رسوله ، بلا حد ولا غاية ، ونحن نعلم أن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" . ولعل شاعـر القصيدة الشعبية الملحون، كان مطلعا على آراء بعض أصحاب المذاهب، فانعكس ذلك في شعره ، على حد ما نجد في شعر الشيخ المغراوي:

واعلم بأن الرحمان رب جميع لكـــــــوان
غني مغني منــــــــــان ليس لو امثيـــــــــــل

ويقول الشيخ بنيوسف:

يامن ليس ليه اشبيه ولا امثيلو فالامصار ولا يقدر يوصف مخلوق غير معمي بجهالا

فالأثر القرآني واضح في هذه النماذج ، تعود بنا أصلا إلى قوله تعالى : " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

ومما يكشف عن مدى الثراء والغنى الذي أفاده شعراء الملحون من صلتهم بالثقافة الإسلامية ذلكم الجدل أو الخلاف الذي نشب بين الشيخ أحمد الغرابلي وبين أحد معاصريه من الشعراء يسمى التركماني حول " الإيمان " و"الشهادة " ، هل لا بد من جمعهما قولا وعملا عند المسلم حتى يكون فعلا مسلما ، أم أن الشهادة وحدها كافية وتغني عما سواها . ومثل هذا الخلاف شغل الناس كثيرا في ذلك الإبان في فاس ومراكش خاصة، وقيل إن مجلس العلماء في الدولة لذلك العصر دعي بأمر من السلطان إلى فظ هذا الجدل العقدي ووضع حد له.

يقول الشيخ التركماني متوجها إلى الشيخ الغرابلي في هذا الصدد:

يا الداعي شهد والشهادا بالله والرسول تكفي واكفات وكافية وخير
في الدنيا والاخرة أكثـــــــر
والمومن نيتو أفضل من أعمالـــــــه

لكن الغرابلي لا يتساهل في هذا الموضوع، ويرد على غريمه بعنف، مبرزا أن للشهادة شروطا إذا توفرت، صحت ، وإذا لم تتوفر، بطلت ، كأداء الفروض.يقول الحاج الغرابلي:

أمر فرضه ربي شد فيه وتبغي تسهالـــــه   الشهادة لها كم اشروط لا ريب امعهـــا
العمل أصله النية ومن اطلب شي ينعطى له   خاب من لا اخبر فشريعته وحقق معناها جيب ما يوجب
في حق الجليل صفات اكماله   أو ما يجوز أو ما يستبا ح كيف نبأنا طــه

في الصلا والصوم اطهلا وقوم دينك وكــمــالــه   ورد نفسك عن افعال الفحش قبل تغرق فخطاها
الشهادا مفتاح الدين والفرايض اكمـــالــه   من ابتدا الاشيا دون اكمال سارحجةفبداها

كل من فرط فالدين القويم يوم ايجي أجالــه   عـليه ايخاف إذا يحتاج للشهادا ينساهـــا جل واسأل من
اترك الزكا ولا زكى مالــه   عاش فحرام أو شهادته كفاتو معناهـــا

جل و سأل من اترك الصلا وشروط كمالو   كان يتعاقب أو شهادته كفاتو ومعنــاهـــا

ويستتبع مثل هدا الجدل الفقهي، الايمان بالرسل.. وحديث شعـراء الملحون عن جل واسأل من اترك الصيام وشروط اكماله كان يتعاقب أو شهادته الأنبياء والرسل، يفيد أن لهم اطلاعا كبيرا بهم، على حد ما تدل عليه هذه الأبيات للشيخ بنيوسف:

ياللي برحمتك يعقوب نال رغبه والمقصود
حين جمعت له شمله بيوسف ولا فرحان
ياللي كشف اضرار أيوب بعد ما كان فلنكود
يا اغفير الذنب لداود جود عنا بالغفران
ياللي نجى ابراهيم من نار النمرود
يامن لا يخلف وعد ويعفو بعد العصيان.

دائما مع ما لشاعر الملحون من ثقافة إسلامية، تلقاها وتشبع بها، وسعى من خلالها إلى تكوين ذات مسلمة مستقلة استقلالا تاما، تأخذ عن غيرها ما ينفعها وما يدفعها إلى الأمام.

يقول الشيخ المغراوي مذكرا في إحدى قصائده بأسماء الأنبياء ، فهو يعرفهم حق المعرفة:

وين نوح فســـــلام   وين لفضيل ســام
وين يدفت وحـــــــــــام
وين أيوب أفلرصام   وين صالح وحــام
وين داود لهمـــــــــــام
وين ابراهيم وين اسماعيل لمجد   وين إسحاق وين يعقوب أولاده
وين إلياس وين دانيال أهلى الجد   وين ذا النون اسرور قلبه واعياده
وين ادريس زال به اغيار النكد   أذا القرنين من ابلغ في تجهـــاده
وين موســـى الـــمعهـــــود   وين شعيب أهــــــــــود

وين النـــمرود أصـــولتـــو وين جالوت أدنيتـــــــــو
وين فرعون ألامتـــــــــو

ويتوج هذا الاطلاع بالحديث عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو في طليعة هؤلاء الرسل والأنبياء، وبالنسبة لشعراء الملحون، فهو صورة من انبهارهم بهذه المعجزة، إذ إن حبهم وتعلقهم بالرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم، لا يقل عن حبهم للمولى عز وجل، عملا بقوله تعالى: " من يطع الرسول فقد أطاع الله" وقوله: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول..." لذلك فمحبته صلى الله عليه وسلم أكمل مظهر وأعلاه، وأجمعه وأوفاه لآيات محبة الله. وهكذا كا ن حضوره ماثلا في معظم قصائد شعراء الملحون، أساسه هذا النور المبين الذي جاء به سيدنا محمد عن ربه الكريم.

وتأسيسا على ذلك، جاءت قصائدهم مثالا صادقا ومرآة صافية نرى من خلالها سيرته العطرة، ونبل أخلاقه، وكمال أوصافه وعظيم شمائله. فالله تعالى قد جعل نبيه خيرة خلقه واختاره لأكرم رسالة وأعظم د عوة، وكان هذا المقام محتاجا إلى التأييد والتمجيد والتكريم والتعظيم ، لأن العظائم كفؤها العظماء.

يقول شاعر الملحون الشيخ الحاج ادريس الأزموري

يانور النور الزاهر يامن بك الدنيا والاخرا زاهـــرا
يا سر السر الباهــر ياروح الروح اللي متشرفا طاهرا
يا من مدادك حاضر واسرارك على العباد باينة ظاهرا
يا خير الخلق الظاهر صلى الله اعليك يا امام الــــورى
يا محبوب الرحمان يا رفيع المكان يا نسان الاعيـــان
يا ضيا كل عين
أنت اللنورك كان قبل ايكون الزمان كانت منه الاكوان
وانتشر كل زين
اقسم نعم المنان للقلم بالبيـــان لولا وجهك لكـــان
شي من الكاينين...

وإلى ذلك أيضا يشير الحاج الصديق بقولــــــــه:

لولا هو لخرجت الدنيا من عدم العدام لا شرق انوار فالظــــــلام
لولا عين الوجود عين الرحم لكانت ليام ولا اشهور واعـــــــــوام..

يقول الشيخ محمد الرباطي في الاتجاه ذاته ، أي الحديث عن صفات وشمائل رسولنا الكريم:

طه منبع لاكوان مفتـاح الكل لكـــوان
لولا هو لكـــان لا كاين ولا كـــــون
طه كهف الامـــان عين الجوهر والاحسان
طه شمس العرفان شرقت عن كل لمكـــون

وواضح مما سيأتي أن الكتب السماوية قد أخبرت به صلى الله عليه وسلم قبل أن يكون له وجود .. ولولاه لما كان أي شيء من هذا الكون، أو بمعنى آخر، لم تخلق الأرض ولا الأفق ولا الزمان ولا الناس .. يقول شاعر الملحون:

أحبيب الله لا نبي مثله مخلوق السابق فأول السطر للعرفاني

من قبل الايزيد عبرت به اكتوب كما خلق أونشاه نعم الوحداني
عرفوه أوكذبوا أو جحدوا هل لكتوب لولاه ما يكون شي من لكوان...

ويقول الشيخ التهامي المدغري:

يا نور اسبق كل نور عم الجمهور النور من انوار العلم بالروح خصك بالآية الفاتحا
واعطاك كتاب فيه حارت فصاح...

إضافة إلى ما ذكرناه، تناول شعراء الملحون قضايا أخرى أغنت الأجواء الشعرية وأمدت أخيلتهم بصور موحية شفافة، ومعاني صادقة . ففي حديثهم عن القضاء والقدر ، نلاحظ أنهم يستوحون من القرآن الكريم، المبدأ العام لهذه العقيدة، وهي أن الله تعالى، قدر لهذا الكون قوانينه وسننه، فأحكم تقديره .. يقول رب العزة: "إنا كل شيء خلقناه بقدر.." والمسلم ـ حسب المنطق القرآني ـ مؤمن بقضاء الله وقدره، لا يعترض عليهما، بل يستقبلهما بالاطمئنان والرضى.. ولعل الإيمان بهذا القضاء ليس معناه الاستسلام والركون إلى الكسل والتهاون . فالذين سبقونا من المسلمين ، لم يمنعهم إيمانهم بقضاء الله وقدره من التقدم في ميادين الحياة المختلفة، بل انطلقوا في مشارق الأرض ومغاربها ينشرون دين الله غير هيابين من الأخطار.

وقد صور شعراء الملحون هذا الجانب، ولم يغفلوا عنه باعتباره عقيدة إسلامية تجسد الصبر عند نزول البلاء، والتوكل على الله عند الشدائد، والرجوع إليه عند النوائب. لذلك يرى شعراء الملحون أن العبد مطالب بالرضا بالقضاء والقدر.

يقول الحاج الصديق المسفيوي:

ما اجهلت حكم المتعال فالقضا ما تنفع احضاوا شاين ايريد الله إيكون
ارضى بالقضا والصبر عم الهل لسلام احلاوا راضين باحكم الممنون.

ودليل شعراء الملحون على الرضا بقضاء الله وقدره، قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " من لم يرض بالله وبقضائه شغل قلبه ، وتعب بدنه"..

فالمؤمن يرى أن الله تعالى هو مصدر كل شيء، ورب كل شيء، رافع السماء بغير عمد، وباسط الأرض ومسخر السحاب، وفالق الاصباح، بيده الخلق والأمر، وهو على كل شيء قدير.

يرى المؤمن أن الله تعالى هو مصدر كل شيء، ورب كل شيء، رافع السماء بغير عمد، وباسط الأرض ومسخر السحاب، وفالق الاصباح، بيده الخلق والأمر ، وهو على كل شيء قدير.

يقول الشيخ المغراوي:

انما اقضى يرفق بي رافع السما لغشيم أرما ادى خباري متهني خاطره يرتاح

ويقول الشيخ هاشم السعداني:

كيف يمنع من مكتوب وكيف ينطال من احكام الرب عليه لقلام سجله
كل من راد الله على الورى تـــود والزم اللطف يفاجي هم ضيق لانكاد

ويقول ابن الصغير:

نبدا باسم الكريم عاتق الانفاس من تجلى بقدرته واحكـــــــامه
سبحانه رافع السما بحكمته واكماله

صفات أخرى وقف عندها شعراء الملحون ، وكلها من أثر الثقافة الإسلامية ، مثل الخشية من الله والتوكل عليه والصبر والجهاد . فالقرآن الكريم يصف المؤمنين بالخوف والخشية من الله ، والخشوع له في آيات كثيرة .. وتتوارد هذه الصفة على ألسنة شعراء الملحون حين يتوجهون إلى الناس بمواعظ وحكم تعليمية لها دور كبير في تقويم ما اعوج أحيانا من سلوك الناس . فهذا الشيخ الشيكر يبدي خشيته من خالقه بعد أن أذنب .. يقول:

يا رب اخشيت اعذابـك لاني أوصيف عاصي مذنوب
فعلي اقبيح ما يرضى لك وانت اشهيد باصر وارقيـــــب

وهذا الشيخ أحمد الطرابلسي يتوجه إلى الله تعالى خاشعا خائفا متضرعا ، يقول:

يا الغني فك ارجايا وطالبك تقبل طلبي بالشهادا تكرمني في الختام ننجى من لعذاب
ياالغني عجل بعفوك ليك كريت بذنبي باسط اكفوفي من قلبي انقول فالضي وغهاب
يا الغفار اغفر ذنبي يا العالم عن قلبي قاصدك ترحمني وانت ارحيم واكريم وتواب

وفي الشعر الملحون الكثير من القصائد التي تبرز الخشية من الله .. أما التوكل ، فهوتفويض الأمر إلى الله تعالى ، مصداقا لقوله عز وجل : " وأفوض أمري إلى الله ، فستذكرون ما أقول لكم .." وقد يذكر شاعر الملحون التوكل بلفظه ، على حد ما نجد عند سيدي عبد القادر العلمي:

من فيك الرجا واعليك الاتكال لا تولجني اليد من لا يرثى لي.

أو عند محمد بن علي المسفيوي وهو من كبار شعراء الملحون بأسفي:

يا نعم المالك الرؤوف الموجود العالي يامن عنو فالشيات تكلي

أو كما يقول الشيخ المغراوي:

اعمل تكلك في الله لا ترتجى سـواه
دير تكلك يا قانـط افلغي السلطـــان
اتوجد وقت ما تدعيه سامع احنين

نكاد نستشف من النماذج التي عرفناها في الحلقة السابقة، أن شاعر الملحون يميل إلى التوكل الصحيح الذي ينسجم مع المنطق الإسلامي.

ولا نشك أن الخشية من الله تعالى والتوكل عليه يولد الثقة والاعتداد بالنفس ، ويبعدها عن صفات اليأس والقنوط، وقد أهاب القرآن والحديث أن تتسلل مثل هذه الصفات إلى النفوس.

قال تعالى :" ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين " أو كما يقول عز شأنه : " لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا"

يقول الشيخ ا بن سليمان في هذا الاتجاه:

ما قاطعين ياس من رحمة الله واحبيبنا الشافع رسول الله

وحين يتحدث شاعر الملحون عن الصبر، فهو لا يتحدث عن هذه الصفة بعيدا عن الجو القرآني والحديثي الذي تستحضره ذاكرة الشاعر لحظة التعبير عن التجربة .. فصفة الصبر تكاد تشتمل على الفضائل كلها، فهناك صبر على الطاعة أي التمسك بأدائها، كالصبر على الصلاة والجهاد، والصبر عن المعصية بحفظ الجوارح عن ارتكاب ما يغضب الله، والصبر على الابتلاء وغير ذلك.. وقد جمع القرآن الكريم هذه الأنواع من الصبر في قوله تعالى: " والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون" ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " الصبر ضياء " وكذا قوله: " ما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر.." فكيف عبر شعراء الملحون عن الصبر في شعرهم؟

إجابة عن السؤال الذي طرحناه في الحلقة السابقة عن الصب وكيف تم توظيفه من طرف شعراء الملحون، نجد الشيخ بنمسعود الأزموري يشير إلى ذلك بقوله:

الصبر ايفادا ياعشيق واقفال ابواب الحب لو اصعابو ينهالو
والشدة بالرخفة يدالها فضل من الرحمـــــــــــان

فبالصبر يستطيع المرء أن يتغلب على كل ما يعترض سبيله .. يقول سيدي عبد القادر العلمي:

لكني بالمساعفة والصبر توصيت — من ابلاني بعلايلي ليس خفاته

فالصبر إذن خلق من أجل أخلاق الإسلام ، وفضيلة من أعظم الفضائل، فهو جماع كل خير ومنشأ كل فضيلة.

يقول الحاج الصديق:

أركن للصبر يا قلبي — والصبر فيه راحــة لجميع الناس
أمهل يا الزايد تعبي — جول في امحبت احباب بين اجناس

ويقول ابن احساين:

اصبر يا راسي أو لا تكون — على لمحاين احــــــزيـــن

كما يقول ابن علي الدمناتي:

أقلبي كن عن امصابك صبار — الصبر مفتاح اللكنوز والدخيرا.

وهناك أثر آخر لهذه الثقافة الإسلامية ، ويتمثل في الجهاد . ومعلوم أن صوت شعراء الملحون كغيرهم من الشعراء ، كان صدى للصدمة الاستعمارية التي مني بها المغرب في مرحلة من مراحله التاريخية .. فقد تأججت روح الحماسة لدى الشعراء ، فعمدوا إلى الجهاد لمواجهة العدوان . ومعلوم أن القرآن يدعو إلى القوة ، مادية أو معنوية .يقول الحق سبحانه : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. " سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم قائلا : " دلني على عمل يعدل الجهاد " فقال : " لا أجد .. " ثم قال : " هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟ قال : ومن يستطيع ذلك؟ " وقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم" ..

إن مثل هذا التصور الإسلامي للجهاد ، يربطه بهدف معين ، ويجعله عقدا بين المسلم وربه ، يبيع المسلم بمقتضاه نفسه وماله في سبيل الله ، وثمن ذلك إنما هو الجنة .. "إن الله اشترى من المومنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .. " فكيف استلهم شعراء الملحون روح الجهاد ومبادئه في مخاطبة جمهورهم ؟

نتبين ذلك من خلال دعوتهم إلى الجهاد كواجب ديني لا بد أن يستوفيه المرء. يقول الشيخ ابن علي ولد أرزين:

سبحان من افرض علينا الجهاد فرض واجب   وخير كل موت في الجهاد
وكل خير يغنم في المبدا والآخر   بالجهاد يتفوق الاسلام على النصارى
فازوا هل الجهاد واهوان كل صعب وفي غزوة خيبر فازوا ناس الجهاد لكرام

ومثل هذه الدعوة نجدها عند الشيخ هاشم السعداني في مثل قوله:

ما ابقى إلا العزأيا جميع لاســــلام   شمروا للجهـــاد ايعمكم حـــرم
كل من مات على عز الاسلام يرحام   تبعاه الحور تخطف فكل صـدام
من عمل محسوب ولقى كيوس لحمام   عاش عيش الابــد فطيب كل نعم...

وقد تولى غير قليل من شعراء الملحون مهمة الجهاد والدعوة إليه ، والتحريض عليه في ظل ظروف التهديد الاستعماري المتواصل .. يقول الشاعر السعداني:

يا سنيد الاولين لعباد لسنـــدا   يا مدبر حال الالو خبير لنداد
فرج علينا من غلب اللئام لعدا   وأيد السلام والهم العز الجهاد
لقلوب اضعاف وكسبتهم بردا   ولا نظرنا فهموم بعز دين لجداد...

ومهما كانت دعوة هؤلاء الشعراء إلى الجهاد ، فإنهم لم ينسوا التوجيهات الدينية ـ كما جاءت في القرآن والحديث ـ المتعلقة بالرفق والرأفة والرحمة .. وفي هذا المعنى يقول الحاج الصديق وهو يدعو إلى التسامح :

كولوا اللامت يكفي امن الجحاد   سامحوا ألطفوا مولانا سماح
عطفوا يا لمــــــــــــــــــلاح
من سلم يسلم را حاله يسكـــاد   يفتح ابصيرته مولاي الفتاح

ويطول بنا المجال لو أننا تتبعنا أثر الثقافة الإسلامية في الشعر الملحون .. ففي كثير من القصائد ، نجد كما هائلا من الموضوعات التي تتضمن هذا الأثر . ويكفي الاقتصار على الأبيات التالية للشاعر بنيوسف التي تضمنت أثر الثقافة الإسلامية في كل تجلياتها وأبعادها .. يقول:

أفعالنا واخطانا لقباح مع الريا فالاعمــــال
هم اسباب الذل وما نزل بنا من اضـــــــار
هجرنا القرآن والاحاديث والصلا ساءت لاحوال
وكداك الصوم مع الزكا ة اتركنهم بالجهـــــار
وجهرنا بالزنا والخمر ولكدوب واعمال أرذال
ونقص الكيل مع البهتان ولا اتفكرنا لحفـــــار
وكذلك الزور وسب الوالدين من اصغار وكبـــار
وعقنا الوالدين وقطعنا الرحم اجهــــــالا
والحجاب ترتفعمن السما وعمات لابصـــــار
وحللنا الحرام كما امشا هد نه فالحـــــــال
ارتفع لحيا و لاخلاق الفضيلا من الاســــلام
ولا ابقى إلا المسخ واهتك الشريعا يا لخـــوان

واتفاحشات الرشوة والطمع واكل اموال اليتـــــام
والقلوب نطمست واعمات لبصاير بالبيـــــــــــان

ويستمر شاعر الملحون في تعداد مظاهر وتجليات الثقافة الإسلامية في قصائده ، وكيف يمكن الإحاطة بها، لأن التعرف إليها والعمل بمقتضياتها ، سيجنب الإنسان الوقوع في الرذائل يقول شاعر الملحون الأزموري في هذا السياق:

والظلم اقوى واحقوق لعباد ندست بقـــــــــدام
واغفلنا عل لحساب مع لعقاب وقصاص الميـــــزان
ولا استحيينا واحشمنا من فعلن للعـــــــــــلام
ومن اخلفنا لهوى والنفس ولا بعدنا شيطـــــــــــان
تمادينا فالنميما ولا انهينا ذا المنكــــــــــــــــار
ما وفينا لعهود ولا افعال تمحـــــــــــي ازلالا
ما استرنا اعيوب الناس ولا احفظنا حق الجـــــــار
حتى ابقينا سفر اليدين غارقين فالاوحـــــــــــال
ما احسنا لخلاق مع لعباد غير القيل والقـــــــال
فطاعت الله اغفلنا والصلاح درناه فلمهـــــــــان
هايمين فدنيت لغرور لا فضل ولا راس المـــــال
ما تبعنا ناس هل الدين نبهنـا للإيمــــــــــــان
وتبعنا دعايات البلشفيك وصحـــاب هل المــــــال
ابقينا لا هادي ولا ديك مثيل هـــايم فالاقفـــــار
هكذا راد المولى في اقضاه مـــا لنـــا اختيـــــار
الخير كله في ما اقضى المولـــى فا حكـــــام
إذا قضى الله أمر فاستسلم لقدرت الــقهــــــار
ما ايليك قوة ولا حول غير تخضـع أمــــامه
لكن إذا ضاقت الامور كن امتيقـن ببشــــــــار
إن بعد العسـر يسـر هكـــذا فازمــام..

لنلاحظ جيدا كيف تفاعل شاعر الملحون مع مختلف مظاهر الثقافة الإسلامية خاصة في بعدها الخلقي ، ذلك أن الإنسان في رسالة الإسلام ، موضوع وغاية ، فهي توليه من العناية وتتوجه إليه بالتكاليف التي تطهره وتزكيه ، وتربي عنده قيم الحق ، وتمنحه قسطا وافيا من العلم الهادي ، وتلبسه ثوب الحكمة ، حتى يشرف على كل المخلوقات ، ويحلق في آفاق الكمالات ، خليفة عن الله ، عبدا له دون سواه . يقول عز وجل : " لقد من الله على المومنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .." فما أجدر الإنسان أن يتوجه إلى ربه بالعبودية ويطرح الغرور والتعالي ويبني الحياة على دعائم الحق والخير.

من هنا كانت دعوة شاعر الملحون قائمة على أحد المبادئ الأساسية التي قررها الإسلام وهو العودة إلى الله تعالى والإيمان به والولاء له وحده ، ربا خالقا رازقا ، وإلها واحدا لا شريك له ولعل مفتاح هذه الدعوة هو توجيه العقل من خلال النظر السليم حتى يكون الإيمان بالله الخالق لكل شيء والمقدر لكل شيء، إيمانا لا تعصف به عواصف الفتن الدنيوية ولا تنال منه دعاوى المفسدين والمضللين . وبناء على ذلك ، نجد شاعر الملحون يوجه نداءه إلى مخاطبيه بالتوجه إلى الله تعالى بدفع الأضرار وكشف البلوى وعدم اليأس من رحمة الله وملازمة الأذكار والإكثار من الاستغفار وقراءة اللطيف حين تضيق الأحوال .. يقول الأزموري:

والله ما لنا إلا الحنين لدفع لاضـــــــــــــــرار

ولا يكشف البلوى غير من فضله تعالـــــــــــى
لا تيأس من رحمته لازم باب بالاذكـــــــــــار
والاستغفار واللطيف الكبير تذهب لو حـــــالا
واجب إلا ضاقت لحوال نتضرع لو بانكســـــار
والخضوع أو الخشوع والذل قادر ايزين الحـــــالا.
أدخيل بالبخاري وبالاصحاب وجميع الانصـــــار
وبجاه من حج وصلى وصام وغـــــــــزا لاردال.

وعلاوة على ما سبق ، يمكن الحديث عن مجال العبادات التي حظيت باهتمام واضح من لدن شعراء الملحون ، على اعتبار أنها التجسيد العملي للمفاهيم والقيم التي يثقفها المسلم من القرآن ومن مصادر التشريع الأخرى . وقد تتبع الشعراء هذه العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج وغيرها .. فسجلوها في أشعارهم التعليمية التي يتوجهون بها إلى الناس . ونمثل لذلك بهذه الأبيات للشيخ ادريس العلمي:

الخمس اوقات من حضاهـــــا بها ينجـى من الهمــــوم
الخمس اوقات من ارضاهـــــا بها ربحوا هل لعلــــوم
الخمس اوقات من اقضـــــاها قال المولى ربحت قـــوم
الخمس اوقات من من دخلت فقلبه ينجى نت المنكر
والهول وغمـــت لقبــــر
وينجيه الغني الدايم من شدة كل داهيا
الخمس اوقات في شانها كم من حديث مشتهــر
واما من أي فالسطـــــر
والصوم والحج من الاركان وهل لكتوب داريـــــا
وجهاد النفس هو لجهاد بصدق ايناسب العصـــــــــر
وهلو فالعز والنصــــــر
والزكا فرض به تبقى هدا الأمة مكافيـــــــــــــا

....
كذلك ، هناك موضوعات أخرى تتمثل في فلسفة الحياة والموت ، إضافة إلى ما تضمنته غير قليل من القصائد من ألفاظ القرآن والحديث ، بل هناك مفردات متجاورة وردت في بعض النصوص ، على حد ما رأينا سابقا ونحن نمثل ببعض الأبيات الشعرية .

فإلى أي مدى وفق شعراء الملحون في الإفادة من الثقافة الإسلامية ؟

الحقيقة أن شعراء الملحون ـ كما مر معنا ـ يتفاوتون وهم يستوحون الأثر القرآني والحديثي ، ولعلهم قد وفقوا في هذا المجال ، وأفادوا في كثير من المواقف .. وبذلك استطاعوا أن يستثيروا خلجات ومشاعر متلقيهم .. كما استطاعوا خلق الإيحاء المناسب حين جعلوا صورته قريبة من صور قرآنية أو حديثية ، وهذا يوضح أن أثر الثقافة الإسلامية تركت بصماتها قوية جلية على مخيلة شعراء الملحون .. ويمكن أن نمثل لذلك بغرق فرعون في اليم ، فهي قد تكررت في عدة آيات ومشاهد قرآنية . يقول هاشم السعداني :

اطغ فرعون غرق ربي في اليـــم ما فك من عراز رد وحســـام

وهذا قريب من قوله تعالى : " فأغرقناه ومن معه جميعا، " وقوله عز وجل : " فانتقمنا منهم وأغرقناهم في اليم. "

وهذا يظهر لنا بلا شك صلة شعراء الملحون بالثقافة الإسلامية .. فقد أخذوا من القرآن والحدبث أشياء كثيرة صاغوها بطريقتهم الفنية في قصائدهم . والشيء نفسه حدث مع الآثار الدينية والفكرية الأخرى ، حين اقتبسوا منها أو تمثلوها في شعرهم . وبهذا يكون شعراء الملحون قد عمقوا صلتهم بجمهورهم ومخاطبيهم ، إذ كانوا مجندين للتعبير عن هموم هؤلاء وقضاياهم ..

لقد منح شعراء الملحون قصائدهم بعدا تصويريا وهم يستوحون من القرآن والحديث صورا حقيقية ومعبرة ومتعددة الدلالات ، اختاروا منها ما يمكن أن يفيد قارئهم ، فأصبحت بذلك قريبة منهم ، كحديثهم عن صفات الله وذكرهم للصلاة والزكاة وما شابه ذلك ...

ففي تعاملهم مع الصور القرآنية مثلا ، نراهم قد وفقوا في أن يكيفوها لأغراضهم ، ويتخذوا منها معراجا لمعاني حياتية كثيرة ، ويضفوا عليها من ذواتهم وعواطفهم.

يبدو إذن أن أثر الثقافة الإسلامية في الشعر الملحون ، كان له أكثر من بعد إيجابي إذ استطاع شعراء الملحون أن يستمدوا الأمثل لما ينبغي أن يكون عليه شعرهم ، فيكسبونه من عناصر العمق والتأثير الشيء الكثير . ومن تمة يتبين أن في الشعر الملحون ما يمنحنا زادا ثقافيا هائلا يجعلنا قادرين على تأصيل ما نريد إبداعه . لذلك ، نستطيع أن نضع هذا الشعر في موضعه الصحيح ، وحينها سنكشف عن ذخيرة هائلة من المعاني السامية ، ومن المثل والقيم النبيلة .. فما أجدرنا في هذه المرحلة من تعميق معطيات أدبنا الشعبي برمته ، صونا له من الضياع والنسيان والإهمال .. وإدراك أهميته بالنسبة لحياتنا الثقافية والفكرية والحضارية رغبة في الحفاظ على هويتنا الثقافية والدفاع عن مختلف مقوماتها ، والرغبة أيضا في مواكبة التطورات الثقافية والعلمية التي يموج بها عالم اليوم أمام تحديات العولمة الرهيبة.

ان الاهتمام بهذا الشعر يظل ضرورة حضارية وفكرية وانسانية .. وهذا الاهتمام به ليس عملا تاريخيا ماضويا، بقدر ما هو عمل حياتي مستقبلي .. والأمر لا يمكن أن يبقى كما هو الآن، في حدود الوفاء النظري له، والشاده العاطفية به، وانما هو كذلك وقبل كل شيء، في الانتفاع به، والوفاء لأنفسنا من خلاله. انه ليس زينة، ولكنه سلاح، وليس تباهيا وإدلالا، ولكنه قبل لك، نوع من الاعداد، ولون من كسب الثقة بالنفس . فلو استطعنا توظيفه توظيفا علميا مدروسا، لكان في مقدورنا تحقيق شخصية متميزة ذات سمات مميزة، وخصال وقيم مستمدة من ثقافتنا الاسلامية المشرقة، ومن ماضينا المجيد، ولرفضنا ما يريده الغرب من تبعية واستسلام، ذلك الغرب الذي يسيطر اليوم بالاقتصاد والتقنية على 98 في المئة من أعمال التنمية الدولية، وعلى 91 في المئة من حركة التصدير، و 85 في المئة من التسلح، ويستهلك 87 في المئة من الطاقة .. وغير ذلك ... هذا الغرب الذي يدمر القوى الفكرية والثقافية والروحية لشعوبنا العربية والاسلامية بصفة خاصة.

ومن هذا المنطلق ، يكتسب الشعر الملحون أصالته وهويته ، فهو الجسر الممدود بين حاضرنا وماضينا ومستقبلنا.

انتهى.